الكثيرمن المعرب عربي

عبدالرحمن الرفاعي(*)

ترى هل كانت للعرب قبل الإسلام حضارات؟ هل كان لهم في عالم التمدن نصيب؟ الإجابة على مثل هذه الاستفسارات حتماً ستكون نعم!! لأن النفي خطأ لا يقبله عقل، ولا يقره منطق، فحضارات جنوب جزيرة العرب بشرقه وغربه لاتزال شواهد صروحها شامخة حتى الآن في كل المواقع التي قامت عليها، ومعلوم أن حضارات تلك الأزمنة كانت أعظم مقوماتها، ترتكز أسسها على الزراعة والتجارة وبعض الصناعات الخفيفة التي كانوا يحتاجون إليها، وهي حقائق مثبتة في سجلات التاريخ ونقوشه.

ولكننا رغم هذا نجد نسبة كبيرة من ألفاظ المصطلحات الزراعية والتجارية والصناعية في اللسان العربي خارج الأصالة العربية، ودخيلة عليها، لأنها عند أهل اللغة عُرّبت عن ألسنة العجم أصحاب الحضارات، لأن العرب كانوا بدواً رحّلاً. وهذا غير صحيح، فالواقع التاريخي يخالف هذه الأقوال، ويعتبرها جزءاً من أجزاء الهجمة الشرسة لحرب كل ما هو عربي في المعتقد والتاريخ، والأرض، والجنس، بل في كل شيء يتصل بالشخصية

(*) باحث سعودي.

العربية، وأهم مقومات الشخصية الإنسانية لغتها التي بها تبين وتصفح، لذلك كانت هدفاً رئيسياً لهذه الحروب الشرسة، لتفريغ العرب من كل مقومات إنسانيتها، لذلك لجأوا لتفريغ لسانها من كل ما يرتبط به من رقي فكري، لأن الرقي الفكري يرتكز أساساً على الرقي المعنوي، فإذا فُرْغت الأمة من لسانها جَهِلت وجُهِّلت، وإذا جَهِلت ماتت وهي لاتزال تسير على الأرض، لهذا كان تركيزهم على اللسان العربي بجعل كل شيء فيه أعجي معرَّب.

صحيح إن الاختلاط والاحتكاك يؤدي إلى حدوث تفاعلات بين لغات الأمم، ومعلوم أن مثل تلك الاحتكاكات تولد ألفاظاً جديدة في هذه اللغة أو تلك، والأخذ والعطاء ليس عيباً بين اللغات، ولا يعتبر دليلاً على وجود نقص في اللغة الآخذة، ولا دليلاً على وجود ضعف في تفكير الناطقين بها، إذ كل لغة مهما بلغت في نموها وسعتها وكمالها لابد لها أن تأخذ من غيرها وأن تطور مفرداتها.

ليس هناك من لغة حية كانت أو ميتة انفردت بذاتها ولم تأخذ من غيرها حتى العربية، أخذت وأعطت قبل الإسلام وبعده، فالأخذ والعطاء من العربية يعتبر قانوناً تفرضه خصوصية عالمية معتقدها، لذلك وجدنا أنها طعّمت الكثير من اللغات بمادة لغوية غزيرة، وكذلك هي أخذت ما احتاجت إليه بحكم تلك العالمية، كالفارسية واليونانية والتركية وغيرها من اللغات لكن هذا لا يعني أن كل ما قيل بتعريبه من العربية، هو فعلاً كذلك، لأنا: (لو راجعنا أكثر أقوال العلماء في تلك الألفاظ التي حكموا بتعريبها، لوجدنا أنهم قد أخطأوا في تشخيص الكثير منها، لسبب بسيط جداً هو أنهم لم يتمكنوا من الوقوف على أصولها لعدم معرفة أكثرهم باللغات الأعجمية، قد يكون تمكن العارفين منهم بالفارسية من تشخيص بعض ما عرب منها، غير أن منهم من زاد عليها وبالغ فيها، بصورة أدخل فيما عرب منها ما لم يكن منها، بل أدخل ألفاظاً عربية شمالية وجنوبية أصيلة في عروبته ما في طائفة

معربات الفارسية، مع أنها جاهلية عربية قديمة وردت في نصوص المسند، ومثل هذا الخلط في تغيير الحقائق وسلب الحقوق أمر يرفضه منهج البحث العلمي السليم، وإذا كان قد وقع وجرى تعميمه قديماً والتسليم به لأسباب معلومة فإنا لا نتصور قبوله في زمننا هذا زمن تطور منهج البحث العلمي لأن العمل العلمي يقوم على فكرة البحث عن الحقائق والطرق السليمة الموصلة إليها، وهذا يفرض على الباحث التريث وترك الاستعجال في إصدار الأحكام الناقصة.. فالادعاء - مثلاً - أن الكثير من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم أو أمهات معاجم ومصادر العربية كالتي تتعلق ببعض الأمور الدينية أو التجارية أو الزراعية أو الصناعية أصلها إما عبري أو سرياني أو آرامي أو فارسي.. إلخ. ادعاء غير صحيح، حتى لو اعتبرناها كذلك، وجدنا أنه تدحض ادعاءهم، لأنها جميعاً ستعود للأصل الذي يطلق عليها علماء الأجناس واللغات: الأصل السامي، وهذا يعني أن أكثرها يشترك في أكثر الألفاظ والمسميات، فكيف إن قلنا إن السريانية وأخواتها هي لهجات تفرعت من العربية القديمة في زمن توحّد اللسان العربي وتفرقه، وشواهد الدراسات الميدانية التي تمت في مواقع أصحاب تلك اللهجات في جنوب جزيرة العرب - حديثاً - تؤكد حقيقة تفرعها من العربية القديمة إبان فترات التشتت والتمزق... ثم عن العربية التي اتخذها علماء اللغة القدامى معياراً للحكم على أن هذا اللفظ عربي أصيل وذاك معرب، لم يكن صحيحاً لأن اللغة التي بني عليها هذا المعيار لم تكن تمثل كل عربيات جزيرة العرب، لكونها ناقصة، حتى وإن قالوا إنها لا تمثل لسان القرآن الكريم، قلنا لهم إن عربية القرآن نفسه هي ليست لساناً واحداً لكونها تمثل كل ألسنة جزيرة العرب شمالها وجنوبها وشرقها وغربها لقوله تعالى ﴿بلسان عربي مبين﴾ أي أن كل ألسنة العرب هي داخلة في لسان القرآن الكريم والموجود فيما وضعتموه من معاجم ومصادر لا يمثل إلا ألسنة ست قبائل من قبائل قلب جزيرة العرب فقط، في حين نجد القرآن الكريم قد تحدث عن قبائل عاد وثمود ومدين

وغيرها من القبائل التي كانت تمثل ألسنتها العربية القديمة جداً، بل وذكره لها يعني أن شيئاً من ألفاظ ومسميات تلك العربية القديمة وردت في لسان القرآن الكريم، وكذلك تحدث عن الكثير من لهجات جنوب وشرق وغرب وشمال جزيرة العرب، وهذا كله يشير إلى أن ألسنتها قد وردت في القرآن الكريم، ولكنه لا يعني أنه لم يكن معروفاً في بعض جزيرة العرب الذين كانوا موجودين حين نزل القرآن الكريم، ولكنه لا يعني أنه لم يكن عربياً لمخالفته لهم - إن خالفهم - بل هو عربي لكون كل تلك القبائل عربية، ومنها تناسل من كانوا موجودين حين النزول أو بعده باعتراف الجميع.. وهذا كله يعني وجوب تتبع كل ما جاء - إن أمكن - في الألسن العربية جميعها.. بل ويشير هذا إلى هشاشة حجج المبالغين في وجود كثرة المغربيات في عربية القرآن، بحجة أن أصولها ترجع إلى أصول أعجمية، لأنا وجدنا الكثير من تلك الألفاظ والمسميات التي قالوا بتعريبها، وجدنا لها جذوراً وأصولاً عربية في أماكن متفرقة من جزيرة العرب، بل وجدنا الكثير منها لاتزال متداولة في ألسنة الكثير من قبائل جنوب جزيرة العرب، في الكثير من المواقع التي لم يصل إليها أحد عبر كل القرون الماضية، لذلك لا نستغرب إن وجدنا بعض الباحثين يضع تلك التأصيلات اللغوية في باب المعربات في قفص الاتهام، لأن الكثير من أولئك المؤصلين كانت تعوزهم وسائل البحث اللغوي من وثائقه التاريخية الأصيلة، لهذا نجدهم يعمدون إلى تحكيم حسهم وملكتهم اللغوية عند الحكم على اللغة إن كانت عربية أو أعجمية.

فكلمة: (طست) يصرون على تعريبها وعجمتها، رغم أن الكثير يعارض هذه العجمة والتعريب، ويصر على عروبتها، منهم الجوهري صاحب الصحاح، نجده يعيد كلمة (طشت) إلى أصل لسان قومها الناطقين بها بداية، فيقول (إن طست عربية.. أصلها «الطس» بلغة طيئ أبدلت إحدى السينين تاء للاستثقال فإذا جمعت أو صغرت ردت سينها، لأنك فصلت

بينهما بألف أوْ ياء، فقلت طسّاس أو طسيس)[1]. بل نجد صاحب القاموس المحيط يعيد اللفظة إلى مادتها اللغوية[2] التي أخذت منها - أصالة - وهي (ط س ت) ومع هذا كله بقي الكثير منهم على إصرار بأن [طشت] معربة أعجمية من (الفارسية) عربت عن كلمة [طشت] لذلك عابوا المطرزي حيث قال في المغرب: (الطشت مؤنثة، أعجمية لما عرفت أنها معربة، إنما الأعجمية لفظ [طشت]) وكذلك لم يصب في قوله: (والطس تعريبها، لأن الطس مرخم الطست كما أن طش مرخم طشت[3].. إنه تفسير هش! بل عجيب أن يبقى قولهم هذا مسلم به، لأن العربية لم تفلس حروفها من حرف الشين حتى يصبح وجوده بها دليلاً على عجمتها، إن نطقت بالسين دل على تعريبها وإن نطقت بالشين فهي أعجمية لأنها في الحالتين ليست عربية، نطقت بالسين أو بالشين.

منطق غريب والأغرب منه التسليم لهم لأنهم لا يملكون حجة لما يدعونه، ولا يعلمون كل ألسنة العرب، ولو علموه ما قالوه وحسبوه علماً، بل هو سخف، لأنهم لم يسمعوا كل ألسنة شمال جزيرة العرب ولم يعلموا شيئاً من لهجات جنوبها، فلو أنهم فعلوا لما قالوا ما ادعوه باطلاً.. ليتهم وصلوا جنوب جزيرة العرب! فلو فعلوا لكانوا زاروا المواقع التي كانت تتمركز بها قبائل طيئ قبل رحيلها إلى شمال وخارج جزيرتها قبل آلاف السنين، ولسمعوا أهل مواقع جبال العبادل والغمر وبني معين والنظير وغيرهم أنهم كانوا ينطقون - وإلى الآن - كلمة الطس هكذا (تشت)، ولسمعوا بعضاً من المواقع القريبة منهم كالقيوس وجبال القهر ينطقونها (الطشت) ومثلهم جبال الريث وهروب وما حولهم.. أما إن اتجهت شمالاً فستجد أهل جبال (فيفاء) وبني مالك ينطقون (الطس) هكذا (تست)، فهل صحيح بعد هذا الطس معربة أو أعجمية.. وهذا يعني أن معاييرهم التي ضبطوا عليها بيان المعرب من العربي لم تكن صحيحة لأنها لا تثبت عند التدقيق والتمحيص فمعيار أن

حرف (الزاي) لا يأتي بعد حرف الدال كلام غير صحيح لأن الكثير من قبائل جنوب جزيرة العرب لازالوا إلى الآن ينطقون نوعاً من (الآس) هكذا (الهذر)، وعلى هذا يكون حكمهم السابق غير صحيح، لأنه ناقص الاستقصاء، كذلك يقولون إن (اللام والراء) لا يجتمعان إلا في بعض الكلمات القليلة، وعلى هذا تكون الكلمات التي تأتي على ذلك هي معربة، وحجته أنه قليل، والقليل لا يشكل دليلاً على وروده في لسان العرب، وهذا غير صحيح، لأن القلة ليست دليلاً على النفي، بل هي دليل على وجود الكثرة وإن لم يُعلم ذلك في موقعك، لعلمه غيرك في موقعه.. إذاً فالمعربون لم تكن أحكامهم مبنية على منهج علمي صحيح، لأنهم لم يكن لديهم علم بكل لغات العرب، لذلك كانت أحكامهم في المعرب والأعجمي غير صحيحة، لأنها لا تثبت عند مناقشتها وتحليلها، فقولهم – مثلاً –: (إن وجود الأقسام الأعجمية في اللسان العربي هو على ثلاثة أقسام: قسم غيرته العربية وألحقته بكلامها فحكمه حكم أبنية الأسماء العربية الوضع نحو درهم وبهرج، وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها فلا يعتبر فيه ما اعتبر في سابقه، وقسم تركوه غير مفيد)[4].

ترى ماذا بقي بعد ذلك؟!! كل شيء جرى على اللسان العربي هو دخيل أعجمي ليس فيه شيء يثبت أنه أصيل فيها، حتى ما تعارفوا واصطلحوا على وضعه، هم آخذوه من أمة العجم.. ألم تكن لديهم قدرة لوضع دلالات لما تعارفوا على تسميته؟! إذن فالعرب أمة طارئة، لأن كل شيء فيها طارئ، حتى لسانها ليس به ما يؤكد أصالته!! هجمة شرسة لتجريد الأمة حتى من مقومات أصالتها، حرب منظمة، والغريب أنها مضت – ولازالت – كما خطط لها، مضت من دون أن يقف أمامها أحد، بل على العكس استقبلت بالترحاب والاستسلام، حتى وصلت لقمة ما خططت له!! ألا وهو إضعاف الأمة.. تمزيقها.. تعطيل معتقدها، بإضعاف التمسك بقرآنها الذي يحمل معتقدها.. بدءاً بالتشكيك في أصول مفرداته التي نزل بها، حتى

معانيه التي تشير إلى أنه لسان عربي، وليس بأعجمي لم تسلم.. لذلك راحوا يخلخلون حججه بضرب بناها وأسسها، بدعوى أنها ليست أصيلة في عروبتها، لأنها قامت على أسس أعجمية، وضعاً.. واشتقاقاً.. وصياغة، لذلك قالوا بمثل تلك الأقسام وغيرها مما ادعوه وخططوا له ليتسنى لهم بعد ذلك تفريغ اللسان العربي من أي محتوى يؤكد تلك الأصالة المدعاة في نظرهم سواء كان ذلك في دلالات المسميات الحضارية ومصطلحاتها، أو في نفس المواد اللغوية واشتقاقاتها، هي عندهم دخيلة أعجمية.. والغريب أنا رحنا تجاريهم ونتعاون معهم في تثبيت ما يريدون تثبيته، دون أن نمحص وندقق فيما قالوا، بل - للأسف - ذهب الكثير منا يشرعن ما قالوه حتى دون أن يسأل لِمَ فعلوا هذا؟ كما رأينا في لفظتي «طشت، ودرهم» وكذلك مهرجان.. وغيرها.. إلخ، وعلى ذلك قس كما في كلمة (آجور) التي حكموا عليها بالفارسية.. هكذا حتى دون أن يشيروا إلى الأسس التي انبنى عليها حكمهم رغم أن كل كتب التاريخ والآثار تقول: (إن المنقبين عثروا على لبن جاهلي في أماكن متعددة من جزيرة العرب، وكذلك عثروا على الطابوق - الآجر -)[5].. وإذا كان الفراعنة والسومريون والآشوريون والبابليون قد استعملوه منذ أقدم الأزمنة.. فلِمَ نصوا على أنه فارسي فقط؟ الآن من قال بفارسيته - الجواليقي - كان لا يعرف من شعوب الدنيا إلا فارس؟.. ولِمَ نص على تعريبها في العربية ولم ينص عليها في غير العربية؟ فإذا كانوا قد فعلوا ذلك لأنهم لم يكونوا من أصحاب الحضارات.. فهذا غير صحيح!! لأن للعرب كانت حضارات متعددة في أماكن متفرقة من جزيرتهم، لاسيما في جنوبها. وقد شهد التاريخ أنها كانت أرقى وأعلى درجة من حضارات من سموهم بالساميين[6].. صروحها لازالت شامخة إلى الآن، بل ولازال أصحاب مواقع تلك الحضارات يبنون بمادة الآجر إلى الآن وينطقونها (آجر، وآجور) والبعض منهم ينطقها حسب لهجة موقعه (ناجور) بقلب الهمزة الأولى (نون) وهو شائع في جنوب الجزيرة العربية إلى الآن.. فهل هذا يعني

أن شعوب جنوب جزيرة العرب نقلوها قبل خمسة آلاف سنة إلى ألسنتهم وعربوها، كما في حضارات معين ومن قبلهم؟ لا أظن أن ذلك صحيحاً لأن علماء الآثار يرفضون ذلك ويعللون رفضهم بعدة أسباب أهمها: «بعد لهجات جنوب جزيرة العرب عن مواطن أهل العجمة.. ثم برقي المتكلمين بتلك اللهجات وتقدمهم الحضاري، وهذا وغيره كان يمنعهم من فعل ذلك[7]، لذلك كانوا يبتكرون لأنفسهم الكثير من الأشياء وأسمائها، فكان طبيعياً أن تكون أسماء تلك الأشياء بلغة الصانعين لها[8] وهذا يعني أن كلمة (آجر) في العربية هي ليست معربة من الفارسية، بل هي عربية جنوبية، لأنا وجدنا هذه اللفظة منقوشة في الكثير من النصوص الجنوبية، التي نقشت بالمسند بلسان كاتبيها في تلك الأزمنة[9]، ومما يؤكد عربية جنوبيتها - أيضاً - أن الآلة التي كان الطيّانون يستخدمونها لعمل اللبن والآجور هي آلة يمانية لغة وصناعة كما ذكر علماء الآثار، وكانت تسمى (المِسْجة)[10] أو المسحة..

.. وبعد هذا كله ألا يفرض علينا أمننا القومي، وقبله معتقدنا الديني أن نتحرك لحماية لساننا الذي يحدد ملامح شخصيتنا بين الأمم؟ ألا نتحرك لإعادة وغربلة كل ما فعلته وأشاعته تلك الهجمات الشرسة نحو لغتنا وتنقيتها من كل ما ألصق بها؟ ألا نخرج بشيء من هذه الجلسات، على الأقل بنتيجة ترضي شيئاً من طموحاتنا نحو أجيالنا القادمة، لأن الرغبات موجودة، والتقنيات التي تعين على البحث وتسهل مهامه لم تكن متوفرة كما هي في عصرنا الحاضر، والمال والعقول متوفرة والحمد لله.

إذاً فلا ينقصنا إلا العزم والتخلص من عقدة الخوف التي تلاحقنا في كل شيء وفي كل مكان.

الهوامش

1) تحقيق المعرب، لابن كمال باشا، ص 134.
2) القاموس المحيط 2/22.
3) ابن كمال باشا، ص 60.
4) المزهر 1/269 وما بعدها.
5) جواد علي - المفضل - 8/700.
6) جواد علي - المفضل - 8/700.
7) جواد علي - المفضل - 8/700.
8) المرجع السابق 8/23.
9) المرجع السابق 8/23.
10) المرجع السابق 8/23.

